الفصل السابع

المسيحية كدين مستقل

(ا) الإيمان المسيحى لم يستطع تجنب التأثيرات الهيلينية – التيار اليوحانى – المقاومة اليهودية المسيحية للبولينية ولليوحانية – كيف غلبت هذه المقاومة على أمرها شيئاً فشيئاً – انفصال الإيمان عن الشريعة – انفصال الكنيسة عن المعبد – الموقف على أعتاب القرن الرابع .

(ب) المهد اليونانى الرومانى – موضوعات الميتافيزيقا المدرسية – الحركة الفكرية فى المجال الدينى من القرن الأول إلى القرن الرابع – الديانة الرومانية الرسمية والعاطفة الدينية – الدفعة التى أتت من الشرق – التأليف الدينى الفردى فى القرن الثالث – كيف ظهرت المسيحية كدين شرقى ، وكيف اتجهت إلى الفرد – المسيحية لاتقبل التأليف الدينى ، ولكن فى الظاهر فحسب – التقاء المسيحية بالفلسفة .

(حـ) تأثير الثقافة الهيلينية يدفع الإيمان فى اتجاهين مختلفين – اكتمال تحول المسيحية إلى فلسفة إلهامية – ازدهار الغنوصية – دور الفرق فى تطور العقيدة – أثر الطقوس الوثنية .

(د) صورة المسيحية فى بداية القرن الرابع – كيف أصبحت ديناً مستقلا معادياً لليهودية – شروط الإيمان – كنيسة الكنائس – التعصب المسيحى .

(١)

عندما خضع بولس لقوى الواقع ، استطاع أن يطوع هذه القوى لعبقريته الفكرية : فقد كان سباقا إلى قبول فكرة انفصال المسيحية عن اليهودية ، ذلك الانفصال الذى أظهر سير الأحداث أن ليس منه بد ؛ ولكنه مهد له بإنشاء العقيدة المناسبة . ولم يكن الإيمان المسيحى على أى حال يستطيع تجنب تأثيرات البيئة الهيلينية متى خرج من حدود فلسطين . ولقد بينا فيما سبق كيف حدث ذلك قبل مجيء بولس . وكان من المحتم أن يطبق على هذا الإيمان ، فى العالم الإغريقى ، نفس أساليب التفسير التى أراد بها يهود الإسكندرية أن يوفقوا بها بين شريعة موسى وبين الفلسفة اللادينية . وتتبع أحد الآسيويين المجهولين خطى فيلون فى هذا المجال ، ففرض فى مقدمة الإنجيل الرابع أن عيسى المسيح ظهر على الأرض ممثلا لـ « اللوغوس » ، أى كلمة الله ومبدأ الفعل لدى يهوه — حسب مدرسة الإسكندرية — وأنه يشارك الله فى خلوده[1] . وكان هذا فرضاً يبلغ فى مفهومه مبلغاً هائلا من الخطورة ، ولايعنى أقل من أن عيسى المصلوب ليس سوى ظاهرة مباشرة لله ، أى أنه — إذا أخذنا بتسلسل الفكر المنطق — ليس سوى الله نفسه . وكان أيضا فرضاً يخرج عن نطاق التأدب الدينى بالنسبة إلى اليهود الذين لم يكونوا ليدركوا قط أن اللانهائية الإلهية — تلك التى

---

(١) ١/٤ : « وتحولت الكلمة إلى لحم ، وعاشت بيننا ، ورأينا مجدها ، مجداً كالذى يتخذه الابن الأوحد من أبيه » . والكلمة اليونانية « لوغوس » تترجم فى النصوص اللاحقة للتوراة بـ « الفعل » ، أو « الكلمة » .

لا يجسرون على النطق بوصف لها خشية الانحراف إلى تحديدها – يمكن أن تتجسم فى الحدود الضيقة للجسد البشرى . ولكنه إلى جانب ذلك ، كان فرضاً يسهل التوفيق بينه وبين نظرة بولس للمسيحية ، أو – بتعبير أدق هو فرض ينتمى انتماء وثيقاً إلى اتجاهات هذه النظرة نفسها إذا أخذنا فى الاعتبار ذلك التصريح الأساسى فى كتابات الحوارى : « السيد هو الروح » ؛ كما كان فرضاً بالغ الإغراء بالنسبة إلى أهل اليونان ، ومنسجماً تمام الانسجام مع رغبات الإيمان العميقة ، التى لا تنفك تدفع بالمؤمنين إلى الازدياد من تمجيد شخصية عيسى ، فتحاول – ويكاد ذلك يكون بلا وعى – أن تقربها من الله .

ولم يقبل اليهود – المسيحيون برضاء تام كل هذه التبديلات والإضافات التى أريد فرضها على إيمان الحواريين الاثنى عشر ، وإن كانوا لم يدركوا ، بعد كل ماسوف يترتب عليها من نتائج ، ذلك أن الامتياز الرفيع الذى ظنوه مقصوراً عليهم امتياز « وراثة مملكة الله » ، كان لابد له من التلاشى والانهيار بعد مشاركة كل هذه الجموع من الأتباع فيه ؛ ثم لأنهم كانوا يهوداً يزعمون البقاء على يهوديتهم ، حيث علموا علم اليقين أن أستاذهم كان يهودياً . فعارضو بولس معارضة قوية ، حتى بين رحاب الجامعات التى كان له الفضل فى إنشائها . وحتى بعد أن اعترف الحواريون الاثنى عشر به حواريا مثلهم ، وأحنوا رؤوسهم ظاهرياً لكل ما طلبه من تنازلات لمصلحة الأتباع الجدد الذين اعتنقوا المسيحية على يديه ، حتى بعد هذا نراهم يستسلمون إلى ضروب من « التوبة » ، وضعته أحياناً فى مواقف حرجة . وأصدرت فرق المتعصبين للشريعة كتباً تهاجمه فى عنف . وإن رسائله إلى أهل كورينثيا وغلاطية – مهما بدا لنا ، إلى اليوم ، من غموض تفاصيلها لتشير فى مجملها إشارة واضحة إلى عداء هؤلاء القوم الذين لم

يكونوا ليترددوا فى إظهاره للناس داعيا خارجا عن الدين ، لو أستطاعو إلى ذلك سبيلا . وبعض المؤلفات المتأخرة فى التراث المسيحى – مثل الكتب المنسوبة إلى كليمان رومان الذى عاش فى نهاية القرن الأول – تحمل آثاراً من هذه المشاحنات .

وإلى جانب ذلك أثارت النظريات اللاهوتية فى المقدمة اليوحانية ، هى الأخرى ، معارضة عنيدة . إلا أنه كان من اليسير ، منذ السنين الأخيرة لجيل أصحاب عيسى ، أن يتنبأ الناس بالكفة الراجحة فى ميزان قوى الدعوة المتصارعة ، بالنسبة إلى المستقبل .

فمنذ ذلك الحين ، فى الواقع ، بدا واضحاً أن عودة « السيد » ، أى ظهوره على الأرض من جديد – تلك الظاهرة التى طال أمد انتظارها كثيراً – بدا واضحاً أنها قد تتأخر عدداً لا يمكن حسابه من السنين ؛ فأصبح الحديث عنها ، شيئاً فشيئاً ، لايشفى غليلا ، وبدأ مفهومها يخرج من دائرة حياة المؤمنين العملية ، وتضاءلت بالتدريج مكانتها فى صدر إيمانهم . وعلى أى حال ، فإن صورة القيامة التى تضمنت ملامح هذه الظاهرة المنتظرة ، لم تكن بالصورة التى تجذب الإغريق والرومان بالقدر الذى كانت تستهوى به اليهود . فعقائدهم القديمة الآخذة بالازدواج ونزعاتهم إلى الروحانيات ، كانت تمنعهم من أن يعطفوا تمام العطف على الإيمان بالبعث المجسد وبمادية مملكة الله ويوم الانتصار الموعود ، تلك المجالات التى كان التفكير اليهودى يعشق ارتيادها . ولما أصبح الاتباع الجدد من المشركين غالبية بين المؤمنين وصار واضحاً أن التبشير بالمسيحية لن يقدر له النجاح إلا فى ديار الوثنية ، تحتم على ما سوف يعرف فيما بعد بـ « عهد الإيمان » ، أن يبرز وينمو مطابقاً لصبوات هؤلاء الناس وتطلعاتهم .

ولما كانت نظريات بولس وفروض الإنجيل الرابع شافية لرغباتهم اللاشعورية ، فقد رجح الاعتقاد بأن التركيبات النظرية فى إطار المسيحية – تلك التركيبات التى فاقت كثيراً كل ما تصوره الاثنا عشر فى إيمانهم الأول – لن تنفك تنمو وتتضخم حتى تحتل أكبر مكانة من العقيدة .

وفى الوقت نفسه أيضاً : تم الانفصال الفعلى بين الكنيسة والمعبد وأصبح أتباع عيسى يتحدثون عن اليهود بعبارات لاشك فى أنها كانت غريبة كل الغرابة عن تعاليم أستاذهم . ولن يلبث هؤلاء الأتباع أن يرفضوا الاعتراف لليهود بأى إدراك للحق وبأى فهم للشريعة الموسوية نفسها[1] . ولقد طغت الكنائس الكبرى ، التى احتشد فيها قدامى الوثنيين ، على البقية المتبقية من تلك الجماعات الصغيرة الفقيرة التى أسسها الحواريون وأتباعهم اليهود ، والتى لم تضم فى غالبيتها سوى أناس يؤمنون بالعبادات اليهودية ، بالشام ، وبمصر ، وبروما أيضاً حسب ما تشير إليه بعض الدلائل .

وكانت هذه الجماعات تجتهد فى المحافظة على التعاليم التى تلقتها من رجال عرفوا « السيد » وصاحبوه ؛ فاتهمت بهزال التفكير فيما يخصه ؛ وأوشك أن يأتى اليوم الذى يرفض أغلب المسيحيين لها فيه حق التطلع إلى قسطها من « الخلاص » . ولقد كتب القديس جوستين : أن المسيحيين الذين يداومون على احترام أحكام اليهودية سوف يصلون فى رأيه ، إلى « الخلاص » ، على شريطة أن يحاولوا فرض شعائرهم على الآخرين ، ولكنه أضاف إلى ذلك : أن الكثير

---

(١) يبدو أن الرسالة المسماة بـ « رسالة بارنابا » وهى من المؤلفات التى تهاجم اليهود فى عنف ، يبدو أنها كانت ، على أرجح التقديرات ، تكتب ألف بالإسكندرية فيما بين عام ١١٧ وعام ١٣٠ . إلا أن أحد المؤلفين المسيحيين من سوريا كان يصف اليهود قبل ذلك بخمسين عاماً بـ « المنافقين » .

من المؤمنين سوف يستنكفون من الاتصال بهؤلاء القوم . والواقع أن المسيحيين اليونانيين الرومانيين أصبحوا لا يشعرون برابط يربطهم ببنى إسرائيل ، كما أصبحوا يحملون الشريعة اليهودية معنى رمزيًّا بحتاً ، برغم تصريح المسيح فيما مضى : بأنه لن يبدل من هذه الشريعة حرفاً .

وفى الوقت نفسه أيضاً بدأت الجماعات المسيحية ، التى انفصلت عن المعابد تماماً ، تنظم صفوفها لتقوى على الحياة ؛ فاختارت بادئ ذى بدء رؤساء زمنيين كلفوا بالسهر على مصالحها المادية وعلى استتباب النظام بين رحابها : فى حين راح « الملهمون » من الأعضاء بوحى من الروح القدس يدعمون وينشرون الإيمان . وعندما أحست هذه الروح بالحاجة إلى الاستقرار ، بدأت تتشكك أمر « الملهمين » وما يبدر عنهم من نشاط شخصى ، فبحثت عن السبيل إلى إقامة تنظيم أكثر فاعلية لإدارة « مصالحها » الروحية . ولعل النظام الملكى بين رجال الكنيسة قد نشأ عند انتهاء الجيل الذى اتصل بالحواريين وعرفهم . ويمكن التأكيد ، على أى حال ، بأنه ، عقب هذا الجيل ، كان وشيك القيام .

وبعبارة أخرى ، فإن المسيحية ، فى مقتبل القرن الثانى ، تظهر لنا فى ثوب دين مستقل ، يدرك أصحابه تماماً انفصاله عن اليهودية ، وإن كانت عناصره لم تزل بعيدة عن الانسجام ، كما لم تخرج طقوسه وتنظيماته عن الطور البدائى . وكانت هذه المسيحية ، منذ ذلك الوقت ، قد ابتعدت كثيراً عن الأفكار التى جاء بها عيسى والحواريون ، وأصبحت تتجه إلى بنى الإنسان جميعاً دون تفرقة بين الأجناس أو الطبقات الاجتماعية ، لتدعوهم إلى حياة الخلود .

(ب)

عرفنا فيما سبق من الفصول أن العالم اليونانى الرومانى ، خلال الفترة التى انتقلت فيها إليه آمال المسيحية ، لم يكن صحراء فكرية وعقائدية قاحلة ؛ بل كان يحمل فى رحابه نوعاً من التفكير الدينى . وقد لايكون هذا التفكير الدينى فى الواقع متكاملا – إذ تعلق ، حسب كل فرد ، بموضوعات مختلفة ؛ أو حاول ، على العكس من ذلك ، أن يؤلف بين موضوعات غير متشابهة – إلا أنه كان برغم هذا ، تفكيراً لا يقبل أن يتلاشى دون رد فعل . وكان يعتمد لدى الطبقات الجاهلية – التى كثيراً ما تخلطه بالسحر – على مجموعة كبيرة من العادات والآراء المتوارثة التى يكاد يستحيل القضاء عليها . أما لدى الطبقات المستنيرة ، فكان عماده أيضاً ثبات التقاليد ، بالإضافة إلى التربية الفكرية المعتادة . ففى كل ربوع الإمبراطورية كانت المدارس تبث فى الأطفال روحاً متسقة ، وكانت تعلمهم أساليب منطقية متشابهة وتدعوهم إلى معين ثقافى واحد ، ينتظم تفكيرهم الدينى بالضرورة طبقاً لمقتضياته . وبرز من الآن عامل أساسى فى المسألة ، هو : أن ثقافة هذا العصر كانت مقصورة ، أو تكاد ، على المجال الأدبى . فقد كان أمام الفتى طالب العلم طريقان لإتمام دراساته : الأول منهما منهج البلاغة التى لا يتعلم به سوى فن ترتيب الأفكار والكلمات ؛ والثانية الفلسفة ، التى تريد أن تكشف له أسرار العالم وأن تعطيه تفسيراً للحياة ثم تؤسس لديه مبادئ وأحكام الأخلاق ولم تكن الفلسفة تعتمد فى كل ذلك على أى من العلوم العملية : فالنزعة إلى البرهان التجريبى ، التى ألفها الفكر العبقرى اليونانى قديماً ، كانت قد أضيعت وانتهى أمرها ؛ وشاعت بين الناس خرافات

لايحصى عددها ، رددوها على أنها حقائق ، برغم تهافتها أمام التحليل السليم . لذلك لم يكن علم الطبيعة يعتمد فى هذا الزمن إلا على نوع من الاستقراء الذى لا أساس له ، وعلى نظريات يدعى أصحابها أنها عملية ، وإن كانت لا تمت إلى العلم إلا ظاهريًا . لذلك فإن الفلسفة ، برغم خصوبتها فى المجال الأخلاقى الذى أظهر فيه الكثيرون حكمة وبراعة وبلاغة كبيرة ، نراها تتشتت بين مذاهب ميتافيزيقية عديدة ، قد تهمنا بوصفها تركيبات فكرية ، ولكنها تبقى بعد ذلك مذاهب تحكمية بحتة لأنها غير مؤسسة على الواقع . وعلى أى حال ، فقد أنشئت هذه المذاهب منذ زمن بعيد بفضل مفكرى الإغريق ، ثم تطورت فى العصر الذى نتحدث عنه حتى لم تعد غير « موضوعات » يطرقها الأساتذة ويغيرون فيها ويبدلون ، كل حسب اتجاهات شخصيته الفكرية . ولما كانت هذه الموضوعات غريبة تماماً عن العلوم الوضعية ، سهل تطويعها وحشوها بإضافات لاتمت بصلة إلى مذاهب أصحابها الأول : هكذا مثلا كان فيلون قد جمع بينها وبين الفروض الأساسية للشريعة اليهودية ؛ وهكذا استنبط منها فلاسفة الأفلاطونية الحديثة نوعاً من الأديان المهمة ؛ وهكذا أيضاً أدخلها علماء الإسكندرية المسيحيون فى إطار مفاهيم إيمانهم ، فخرجت من هذا الخليط عقائدية جديدة . وفى حدّ ذاتها ، لم تكن الموضوعات المذكورة لتستطيع مقاومة أمام مثل هذه النزعات ، إلا أنها ، من ناحية أخرى كانت ضربت بجذورها فى أذهان المثقفين وتقبلها الناس جميعاً ، حتى العامة منهم ، باعتبارها حقائق لا مماراة فيها ؛ فصار من المحتم أن يحسب حسابها فى كل تفسير للعالم والحياة ومصير البشرية ، وفى كل دين يقوم بالبلاد .

ولنلاحظ ، بالإضافة إلى ذلك ، أن المسيحية أدخلت فى العالم اليونانى

الرومانى خلال القرن الأول ، فلم تثبت به وتتمكن إلا فى القرن الثانى ، ثم لم تنتشر كل الانتشار إلا فى القرن الثالث . وإن ما نسميه اليوم بـ « روح الشعب » وبـ « الرأى العام » ، لم يبق على موقف واحد ، خلال هذه القرون الثلاثة ، تجاه المسائل الخاصة بالفلسفة وبالدين . حقيقة أن موقف الطبقات الممتازة ظلّ مختلفاً عن موقف الطبقات الدنيا ، ولكننا نستطيع القول بأن عند كل من الطائفتين كان يتغير بمرور السنين . وإذا ما كانت المسيحية قد انتشرت كل هذا الانتشار فى القرن الثالث ، فذلك لأن التغير تم وفقاً لمصالحها .

وفى العهد الذى حلت فيه الإمبراطورية محل الجمهورية كانت الديانة الرسمية اليونانية – الرومانية قد تطورت إلى نوع من التأليف الدينى ، إلى نوع من التوفيق – تم على أعقاب احتلال الرومان للشرق الإغريقى – بين آلهة المنتصرين وآلهة المغلوبين . ولم يكن المثقفون من الناس يؤمنون بها ، وإن أظهروا احترامهم لها فى المجالات العامة ، ولم يستنكفوا من المشاركة فى طقوسها عندما تقتضى الظروف مشاركتهم ؛ ذلك أنهم آمنوا بضرورتها بالنسبة إلى عامة الشعب الذى يحتاج إلى ضابط لأطماعه ولغرائزه الفطرية الخطرة ؛ وأنهم لم يتناسوا أن دولتهم القديمة قامت على أطراف منها فى قديم الزمن ، وأن أجدادهم اعتمدوا عليها فى كفاحهم المتصل ، ثم لأن هذه الديانة لما تمتاز به من صفات رومانية خاصة – هى الرابطة الملموسة بين أهل المدينة الكبرى روما . وكانت نزعتهم المتفاوتة من العمق إلى الشك تدفعهم نحو مذاهب المدارس الفلسفية المختلفة ، يطلبون منها ، كل حسب حاجته الشخصية ، الغذاء الميتافيزيق الذى لا يستطيعون عنه غنى . وذهبت غالبيتهم فى اتجاهاتها نحو المدارس الرواقية أو الأبيقورية . أما الطبقات الدنيا من الناس فقد ظلّ أفرادها على تقديسهم لصغار الآلهة وللسحرة .

وبينا الأمر كذلك ، إذا بالديانات ذات الأسرار ، النازعة إلى التصوف والحسيات ، والتى كانت قد أتت من الشرق وضربت بجذورها فى أرجاء الإمبراطورية ، إذا بها تنتشر شيئاً فشيئاً وتجد الأعداد المتكاثرة من الأتباع . وقد وضع الإمبراطور أغسطس مخططاً لإصلاح الدولة ضمنه قسماً يهدف إلى الإحياء الكامل الشامل للديانة الرومانية . ولكنه فى عمله هذا إنما كان يتيه فى دروب غريبة من الخيال ، إذ ظن أنه يستطيع إجبار الناس على تقييد عاطفتهم الدينية – إن كانوا من ذوى العاطفة الدينية – فى الحدود التى رسمت لها فى الماضى البعيد ، أو أنه يستطيع إعادة الإيمان إلى صدور الذين فقدوه . ومهما يكن من أمر تفكيره هذا ، فهو لم ينجح فى استعادة الصورة الكاملة لما كان عليه الحال إلا فيما يختص بالشعائر وبالمعابد ؛ ولذلك كانت النتيجة الكبرى لعمله هى دعم معنى القومية المتمثل فى الشعائر الرسمية ، أصبحت الوطنية ، كما أصبح الإخلاص للحكم ، يفترضان التعبد لاسم أغسطس ولآلهة روما .

كانت هذه الديانة مقصورة على بعض الاحتفالات ، وخالية تماماً من كل فقه لاهوتى ومن كل عقيدة حقيقية ؛ كذلك لم تكن لتزعم بعث شىء من الحياة فى عاطفة دينية أيًّا ما كانت . بيد أن العاطفة الدينية عادت لتحتل فى الضمير الإغريقى – الرومانى مكانا يزداد اتساعاً بمرور الأيام ؛ وكان ذلك تحت تأثير نفحات أتت من الشرق ومهد لها الافتقار إلى العلوم الوضعية ، وألوان من المحن مرّ بها القوم من عهد « تيبريوس » إلى عهد « نرفا » ، وزعزعت من نفوسهم ، ولم تستطع الرواقية أمامها إلا حماية فئة طليعية محدودة العدد . ونمت هذه العاطفة وأصبحت لها متطلبات أخذت فى الازدياد . وطغى التحمس المتجه إلى حياة دينية عميقة – حتى بين الطبقات المستنيرة – على تيارات الشك ،

وتراجعت الرواقية فى سرعة سريعة أمام الأفلاطونية ، التى فاقتها فى المرونة وفى القابلية للتشبع بالعاطفة الدينية .

وإذا كان من المبالغ فيه القول بأن مارك أوريل كان آخر الرواقيين ، فمن الثابت لدينا أن السنين الأخيرة من حكمه هى الحد الذى بدأ بعد التدهور التام الذى أصاب الرواقية ، تلك الفلسفة التى وصل بها الإمبراطور النجيب إلى منتهى إشراقها . وكان العالم الوثنى بعد ذلك ناضجاً تمام النضوج للتقوى . وقد ساعد على نمو تياراتها فى سرعة سريعة ما رأيناه ، مع ظهور أباطرة عائلة سيفير ، من تولى أمراء أفريقيا والشام للحكم ، ثم من سيطرة نساء أشربن بالروح الصوفية الشرقية . ومر القرن الثالث بسائر مظاهر هذه التقوى : من أكثرها بدائية – تلك المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالإيمان بالسحر – إلى أرقاها فى مدارك الإنسان ، صاغتها التأملات الفلسفية التى أصبحت تنشد الإله . وكان دين الدولة ، فى الصورة التى عرفت بها العصور القديمة كلها ، مقصوراً على عبادة الإمبراطور ، وذلك بعد توحيد جميع القوميات تحت سيطرة روما ؛ وانصبت سائر العواطف الدينية الحية ، بالتالى ، على فكرة خلاص الإنسان .

وهكذا أصبح لكل العقائد والعبادات أتباع يطوعونها لصبوتهم العارمة إلى مستقبل كله سعادة خالدة فى عالم آخر خفى ؛ وراح كل فرد بتقواه الخاصة يستنبط لنفسه ، من هذه المادة الدينية الضخمة ، أشكالا من الدين توافق طبعه ، ويلجأ فى سبيل إنشاء عقيدته وحياته الدينية العملية إلى التأليف بين نزعات للإيمان وصور للطقوس تختلف منابعها .

ولقد ظهرت المسيحية ، منذ القرن الأول ، فى ثوب الديانة الشرقية الجامعة بين الروحانيات وبين الشعائر العملية ، إذ كانت تعتمد من ناحية على الإلهام

الإلهى وعلى الوعد بـ « الخلاص » والخلود عن طريق شفيع أعظم ، وتسعى من ناحية أخرى إلى إنشاء « حياة » جديدة على الأرض ، حياة كلها حب وفضيلة . فكان من المرجح إذن أن تجد قبولا لدى هؤلاء القوم الذين يتطلعون إلى نفس الآمال التى جاءت بها . غير أن ما رآه الناس من تمسك المسيحية بعقيدة لا تميل إلى مزجها بما يحيط بها من عقائد كان من شأنه فى البدء أن يعرقل من انتشارها قبل أن يؤدى فى النهاية إلى ضمان ومساعدة هذا الانتشار . فقد أبدت المسيحية إحجاماً ظاهرياً عن كل ما من شأنه التأليف بينها وبين الأديان الأخرى . إلا أنها كانت لا تزال غاية فى البساطة فيما يتعلق بالعقيدة وبالشعائر ؛ أى : كانت لا تزال غاية فى المرونة الفنية ، بحيث تستطيع استقبال النزعات الدينية والشعائر المنتشرة انتشاراً واسعاً التى تلاقيها فى العالم اليونانى – الرومانى فتدمجها فى عقيدتها وشعائرها ، ويكاد ذلك يكون دون إدراك منها . وإننا لمعن فى هذا السبيل ، فنقول : إن المسيحية لم تكن تستطيع مدافعة أمام هذه النزعات والشعائر السائدة . وإذا كانت قد انتصرت فى القرن الثالث على سائر ألوان « التأليف » الدينى الوثنى فذلك لأنها كانت قد تطورت هى الأخرى إلى تأليف دينى تجتمع فيه سائر العقائد الخصبة والشعائر الجوهرية النابعة من العاطفة الدينية الوثنية قامت هى بترتيبها وتركيبها وأضفت عليها الانسجام الذى تفتقر إليه بحيث استطاعت أن تقف ، بمفردها ، أمام أشتات المعتقدات والشعائر التى يؤمن بها أعداؤها دون أن تظهر ضعفاً أو نقصاً عليها فى أى من المجالات الهامة .

وتمت ظاهرة التشرب هذه – وهى من الظواهر الأساسية فى تاريخ المسيحية – فى بطء بطىء ، معتمدة على الاتصال الدائب بتطور الإيمان بين جميع طبقات المجتمع الوثنى ، ذلك المجتمع الذى اختلفت فيه صور الإيمان

باختلاف بيئاته وباختلاف العهود التى مر بها ، كما بينا فيما سبق من حديثنا . وإنهالظاهرة تفسر لنا كيف جاء العصر الذى استطاعت فيه المسيحية أن تكسب عطفاً نشيطاً بين رحاب العالم اليونانى الرومانى . ولسوف يأخذ الإيمان المسيحى بعضاً من روح كل طبقة من طبقات المجتمع ، ولسوف يدين لها كمجموعة بالتدرج الهرمى الذى نجده حتى اليوم فى الواقع بين صفوف أعضاء الكنيسة ، ذلك اللون من التدرج الذى لوحظ منذ بدأ الدين المسيحى ينتظم تدريجاً يبدأ من « إيمان العجائز » البسيط الساذج ، وينتهى إلى إيمان المفكرين الفلسفى ، فى عملية تصاعدية بطيئة ، بل تكاد تكون غير ملحوظة .

كان دعاة المسيحية الأول أناساً من صغار القوم ، فاتجهوا بادئ الأمر إلى أمثالهم من طبقات المجتمع الدنيا . والواقع أن عقيدتهم – وهى الداعية إلى الصبر والمساواة والتآخى – لم تكن لتحظى بأكبر قسط من القبول المطلق إلا لدى هذه الطبقات . ولكن علينا ألا نغالى فى الادعاء : فقد بشر بولس وأتباعه بالمسيحية فى أوساط المريدين لليهودية ، ولم يكونوا جميعاً من الطبقات الدنيا ، بل عد فى صفوفهم نساء من علية القوم ، ولانشك أنه قد انضم إليهم أيضاً رجال من ذوى النفوذ والثراء ، والكثير من الدلائل يشير إلى أن بعضهم آمن واعتنق المسيحية . غير أنه من الثابت لدينا أن النبلاء من النامس أو ذوى الشأن بينهم لم يشكلوا قط سوى أقلية قليلة فى إطار الكنيسة ، وذلك حتى عهد الأباطرة من أسرة أنطونينوس . أما العبيد والعمال فكانو « الرصيد » الأكبر لها . ولما كان كل مسيحى جديد فى هذا العصر يعدّ وحدة جديدة فى قائمة المبشرين بها ، ظلت المسيحية على رواجها بين صغار الناس خاصة . ولكنها بدأت أيضاً – عن طريق العبيد والإماء – تنتشر بين المعتقات من النساء وربات

البيوت ، بل وجدت فى بعض الأحيان اهتماماً من طوائف الرجال المثقفين فى بحثهم عن الحقيقة الإلهية . وبفضل النساء تسربت المسيحية إلى الطبقات الممتازة من المجتمع ؛ وبفضل المفكرين الذين اهتموا بها وجدت خلال القرن الثانى ثغرة للاتصال بالفلسفة ، وكانت لهذا اللقاء نتائج بالغة المدى : كان رجال من أمثال « تاتيان » أو « جوستان » أو « ترتوليان » يفدون إلى المسيحية لأن تحولهم إليها صار نهاية حتمية لأزمات داخلية ؛ كانوا يحملون بين جوانحهم رغبات وتساؤلات لم تكفهم عنها الفلسفة ، فى حين كانت المسيحية تشبع الرغبات وتجيب عن التساؤلات . أما وقد أصبحوا مسيحيين ، فلم يكونوا ليستطيعوا التجرد مما تلقوه من تربية ، ومما درجوا عليه من عادات فكرية ومن أساليب منطقية ، ثم من تراث ثقافى وفلسفى تجمع لديهم ، مهما زعموا من التنكر لكل ماضى حياة فكرهم . وسواء أدركوا الأمر تمام الإدراك أو شعروا به شعوراً غامضاً فحسب ، فإنهم ولاشك رأوا وجوه نقص فى الدين الذى تبنوه ، وجوه نقص لافى مبادئه – فقد اعتبروها عميقة عمق اللانهائية – ولكن فى صور التعبير عن هذه المبادئ ، لذلك نزعوا – عندما أرادوا بدورهم الحديث عن هذا الدين – إلى إظهاره فى إطار فلسفة إلهامية ، ولم يستطيعوا فى نزعتهم تحكماً . ولذلك أيضاً راحوا يحشون تبريراته بكل ما أوتوا من الأساليب المدرسية ويدفعون فى العقائد بل التأملات والتفسيرات التى أوحى بها إليهم ، فيما مضى ، تفكيرهم الميتافيزيقى فى وقفته أمام المسيحية .

ومهما يمكن من تفتح آفاقها ومن مرونتها التى اكتسبتها بفضل التفكير البولينى واليوحانى ، فالمسيحية النابعة من الجيل الذى تلا الحواريين لم تقدر مثل هذه التأثيرات ، ولم تدبر الوسيلة لتحليلها وللتحكم فيها ، بسبب ما كانت عليه من

تردد وقلق فى مجال العقائد . فاجتمعت عليها هذه التأثيرات بادئ ذى بدء فى عنف وفى غموض لاحد لهما ؛ ولم تشعر جماهير المؤمنين – وهى البطيئة دائماً فى إدراك حقيقة الأمور – لم تشعر إلا بعد حين أنها كانت تدفع بالإيمان فى اتجاهين مختلفين كل الاختلاف .

(جـ)

أما الاتجاه الأول فينزع إلى الثقافة اليونانية ليستعير منها كل المفاهيم التى من شأنها زيادة للمسيحية الأولى عمقاً وجمالا .

ولم يكن أصحاب هذه الاتجاه ، فى تطويعهم لتلك المفاهيم ، حذرين كل الحذر ؛ ولم يتفق عملهم دائماً مع النصوص أو المنطق وواقع الأحداث ؛ إلا أن نيتهم ، على الأقل ، كانت مطمئنة : إذ لم يطلبوا سوى إخضاع أهم أحكام التفكير اليونانى إلى مقتضيات فروضهم . وإذا كان الأمر قد انتهى إلى تطوير وتغيير المفاهيم والفروض على حد سواء حتى أصبحت شيئا آخر غير ما كانت عليه فالعزاء يكمن فى أن التطور حدث ببطء شديد ، ولم يستثر لدى الناس دهشة أو تأففاً ، بل طبقاً للرغبات الواضحة أو اللاشعورية لدى جماهير المؤمنين .

ولو جاء النبأ إلى الاثنى عشر بأن عيسى قد تمثل فيه الله لما فهموه بادئ ذى بدء ، ثم لتصايحوا بالفضيحة والرذيلة الممقوتة . ولكن المرجح أنهم لم يعارضوا قول بولس بأن عيسى كان « إنساناً سماويًا » وأنه تمثلت فيه « روح الله » . فكان ذلك بداية للإضافات التى تطلع إليها إيمان المؤمنين بالحاح ، والتى انتهت فى تدرجها – بعد التقريب بين الله والمسيح – إلى التوحيد التام بينهما . ولم تسر هذه النزعة – التى خرجت منها الأرثوذكسية – فى خط مستمر واضح ، بل كثيراً

ما ترددت وكثيراً ما ضلت طريقها بين النظريات التى لم يقبلها الإيمان الجماعى ، وكثيراً ما قامت أمامها الصعوبات الجمة فى بحثها عن الفكرة الملائمة أو التعبير المناسب ؛ ولكنها - وهذا هو جوهر المسألة - لم تحاول قط ، بسبق إصرار وإدراك ، أن تؤلف بين الأفكار الوثنية ، أيا كانت ، وبين فروض المسيحية ؛ أو إذا شئنا التعبير بصورة أخرى : فهى فى اختيارها وتنظيمها للإضافات التى استعارتها من الثقافة اليونانية إنما اختارت ونظمت طبقاً لمقتضيات الفروض المسيحية ، ولم نر منها خروجاً عن تلك الحدود ، حتى بين رحاب المدرسة البديعة التى قامت بالإسكندرية وكان أوريجين علمها الأعظم ، تلك المدرسة التى أتمت العمل الكبير : ألا وهو تطوير المسيحية إلى فلسفة ملهمة وكاملة .

أما الاتجاه الآخر الذى عرفته المسيحية منذ القرن الثانى أو قبله ، فهو ينبع من مبدأ مختلف : إنه أيضاً يريد أن يتسامى بالأفكار البسيطة الأولى وأن يوسع من أبعادها ؛ ولم يستطع إلى ذلك سبيلا إلا بتركيب هذه الأفكار مع معتقدات أو نظريات مستعارة من البيئة المحيطة . ولكنه منذ البدء لم يتبع أى حدود فى اختياراته ، فراح يجمع بين موضوعات متعددة ومتباينة أشد التباين : من الوثنية الأولمبية ، والأورفية ، والديانات المختلفة ، إلى المذاهب الفلسفية ؛ وكان كل شىء غذاء دسماً له ؛ ثم إنه ، من ناحية أخرى ، لم يكن يهتم بالتوفيق بين ما يستعيره وبين معطيات التاريخ أو - على الأقل - معطيات الإيمان المعروفة . فهو اتجاه يريد أن يكون صاحب إلهام خاص يبرر به أبشع التركيبات التى يقدمها ، تلك التركيبات التى بدت فى صورة مذاهب تأليفية كاملة ، لا نلمح فيها المسيحية إلا كعنصر قد تغير تغيراً هائلا ، من بين عناصر فلسفة كونية معقدة وميتافيزيقا عسيرة الإدراك ، وليس بينه وبين هذه الفلسفة أو تلك الميتافيزيقا

صلة تذكر. ومن الطبيعى أن هذه الألوان المختلفة من « الغنوصية » التى ازدهرت فى القرن الثانى ، لم يطمئن اليها السذج البسطاء ، ولم يكن مقدراً لها البقاء برغم تحول الكثيرممن تغريهم تركيبات ميتافيزيقا الصوفية والرمزية . ومع ذلك كانت مطابقة لمنطق التطور المسيحى ؛ ونعنى بذلك أنها تعرض علينا وجهاً من وجوه ذلك التطور ، يتجاوب مع ما عرفناه من روح العصر الذى نشأت فيه ويساعد على إيضاح جوانبه لنا .

وإن ظهور ألوان « الغنوصية » هذه لأمر بالغ الأهمية ، مثله فى ذلك مثل ظهور البدع المختلفة التى يصارعها الإيمان قبل أن يصل إلى مستقر له ، والتى يمكن اعتبارها فى غالب الأحيان ، آراء سيئة الحظ وإن كانت لاتقل فى الإغراب و « البدعة » عن الآراء التى فرضت أو فرضت نفسها . وكان من نتيجة الجدل العنيف الذى ثار حول كل هذه المسائل : أن ثبتت شيئاً فشيئاً سائر أركان العقيدة المسيحية ، وأتاح للمؤمنين سبيلا إلى التأمل فى نزعاتهم الفكرية أو العاطفية الخاصة وتحديد اتجاهاتها ؛ كذلك عرف بالمشاكل ، وأبرز الخلافات التى وكل إلى علماء اللاهوت حلّها ، وكان له فضل آخر يفوق كل هذا فى الأهمية ، ألا وهو تأكيد رغبة الناس الملحة التى تدعمها الضرورة لإيجاد « تنظيم للإيمان » ، أى « قانون » ، ثم « سلطة » تمثل القانون وتحميه . وعلى هذا ، يمكن اعتبار الجدل المذكور ، أنشط العوامل فى تنظيم الكنيسة والسلطات الكنسية التى أنشئت خلال القرن الثانى . وهناك عامل آخر يجب البحث عنه فى تأثير البيئة اليونانية الرومانية على المسيحية الأولى ؛ وهو تأثير نزع إلى إدخال الطقوس الوثنية ، بعضها أو جميعها ، فى عبادة كلها « روح وحق » بعد أن هجر أصحابها المعابد اليهودية . ونمت الشعائر فى المسيحية بالتوازى مع

العقيدة وبنفس الأساليب ، فبدأت بتلك العادات الأولى المبسطة الوافدة من اليهودية : التعميد ، كسرة الخبز ، وضع الأيدى على الرأس ، الصلاة ؛ الصيام ؛ وحملت هذه العادات معانى لم تنفك تزداد عمقاً و« سرية » ، ونمت وأضيفت إليها حركات شائعة لدى الوثنيين ، ثم قرنت بالمفاهيم المتسعة الأبعاد التى كانت تدخل مثلا فى طقوس « الأسرار » اليونانية والشرقية ، ونفخ فيها – إذا سمح لنا باستخدام هذا التعبير – بتلك القوة الرهيبة التى كانت للسحر قديماً . وبدأ هذا التفاعل منذ انتقال إيمان الحواريين من فلسطين إلى العالم اليونانى ، وقد لاقيناه وهو فى طور متقدم لدى بولس وأتباعه ؛ ثم واصل تأثيره طوال تلك الفترة التى كان الدين الجديد يكافح فيها ضد منافسيه من الأديان .

ولعله من العسير أحياناً أن نرجع فى كل تأكيد لوناً من ألوان الطقوس المسيحية إلى الأصل الوثنى الذى نبع منه . إلا أنه لا مجال للشك فى أن الروح الوثنية ، فيما يختص بمظاهر العبادة العملية ، قد فرضت على المسيحية شيئاً فشيئاً ، حتى أصبحنا نجدها كاملة فى احتفالاتها . وزاد التقارب بشكل ملحوظ منذ القرن الرابع ، عندما دعت الضرورة إلى القضاء على بعض التقاليد القديمة الصلبة . وكانت سلطة رجال الكنيسة ، من ناحية أخرى ، تعمل على دعم ذلك الحق الذى اكتسبته منذ فترة طويلة والذى انتهت إلى التفرد به برغم بعض التردد ، ألا وهو : التصرف فى القوة السحرية للطقوس التى سميت بـ « الأسرار القدسية »

(٥)

إذا تأملنا الكنيسة المسيحية فى مقتبل القرن الرابع ، فإنه يتعذر علينا أن نجد صورة من صور مجتمع الحواريين ، أو – إذا أردنا الحق – يستحيل علينا ذلك فبدلا من جماعة محدودة من اليهود لايفرق بينهم وبين باقى أمتهم سوى أمل خاص وترحيب بالمتلمذين عليهم من الوثنيين يفوق ترحيب اليهود عامة ، بدلا من ذلك : نجد مجتمعاً دينيًّا واسع النطاق يدخل فيه – دون تمييز لجنس أو لطبقة معينة – كل من يرى فى نفسه القدرة الكافية ؛ مجتمعاً يدرك تماماً أنه يشكل وحدة متكاملة ، وأنه هو الأمة المختارة ، أى : كنيسة المسيح . وتنكرت الكنيسة الجديدة لشعب إسرائيل وشاع فيها القول بأن هذا الشعب قد خرج عن سبل الله وتاه بعيداً عن الحق ، حقيراً محقراً . كما وجدت الوسيلة الناجعة للتخلص من الشعائر العملية التى تفرضها الشريعة اليهودية مع الاحتفاظ بـ « العهد القديم » كتاباً مقدساً[1] . وعلى أساس من المبادئ الجوهرية لإيمان بنى إسرائيل ، أنشأت هذه الكنيسة مجموعة عقائدية جديدة بالغة التعقيد ، اعتمدت فى صلبها على شخصية المسيح التى نمت من حولها النظريات حتى تم توحيدها بالله ، واستقت عناصرها من التأملات الخاصة المتغالية فى تفسير معطيات الإيمان الأولى ، ثم من المذاهب الفلسفية والدينية التى وجدتها فى البيئة

(١) يبدو أنه كان من مصلحة المسيحية التخلص أيضا من الشريعة اليهودية ، وقد سعى بعض ذوى النفوذ من المسيحيين – مثل مارسيون – إلى ذلك . ولكنهم لم يوفقوا فى مسعاهم ، لأن المسيحية الأولى اعتمدت دائما فى تبريراتها على نصوص التوراة التى اعتبرت نصوصاً منزلة على الأنبياء ، فقوى ذلك من قدسية الكتاب لدى اليهود – المسيحيين وثبت من صفته الإلهية .

اليونانية الرومانية . وقد خرجت هذه المجموعة العقائدية على الناس فى صورة ما سمى بـ « شروط الإيمان » التى أقامها المختصون من ذوى السلطة بناء على الآراء الغالبة ، وأريد لها أن تكون – مثلها فى ذلك مثل الفلسفة الملهمة الكاملة – تفسيراً « ثابتاً » للعالم وللحياة ولمصير الإنسان ، أخذ علماء اللاهوت يعملون فى حماس على توسع أبعادها ومفاهيمها وعلى ترتيبها فى انسجام وتكامل .

ومن ناحية أخرى ظهرت لنا الكنيسة على أنها هيئة منظمة . فلقد انتظمت شيئاً فشيئاً فى كنائس خاصة على غرار المعابد اليهودية أو الجماعات الوثنية ، الذين اعتاد قادتهم التشاور فى كل الأمور الخاصة بالإيمان والآداب العامة والنظام ، وأن يعبروا عن رأى الأغلبية فى قرارات جماعية . ويشرف هذا الإكليروس على طقوس أخذت بطريقة مباشرة أو غير مباشرة عن اليهودية أو عن « الأسرار » الوثنية ، ولكنها ألبست ثياب المسيحية ، وحملت – أوحمل الأهم منها على الأقل – بتلك القوة السحرية الخفية التى كان يراها رجال هذا العصر فى العبادات السرية ، سواء منها اليونانية أو الشرقية . وبعبارة أخرى : أصبحت المسيحية ديناً حقيقيًّا ، بل أكمل الأديان إذ ذاك لأنها تبنت من كل دين خير ماوجدته لديه . وكانت أيضاً أكثر الأديان ترحيباً بالوافدين إليها ، وأكثرها إيحاء بالصبر والسلوى ؛ ثم أيضاً : أكثرها قرباً من الخصائص الفطرية للإنسان ، بحيث يجد البسطاء من القوم أنفسهم مندفعين إلى الإيمان بها وإن لم يدركوا مفاهيمها وإلى إطاعة ذوى السلطة فى تنظيمها وإن لم يحاجوهم فى الرأى ، وذلك حتى يضمنوا الخلاص والخلود ؛ كما يجد الفيلسوف فى عقائدها مادة لا تنتهى للتأمل والتفكير .

ومع كل ما امتاز به هذا الدين من تيارات تأليفية عميقة ، فإننا نرى لديه

تعصباً قويًّا عنيفاً ، تعصباً لايقهر : فهو لا يقبل مشاركة أتباعه فى دين آخر بأية صورة من الصور ، وهو لايقبل أية منافسة . وأدت هذه النزعة الجوهرية فى طبيعته إلى إقامة عقبات بالغة الخطورة أمامه ، ونخص منها بالذكر عداوة الحكام والمجتمع المدنى كله ؛ ولكنها انتهت أخيراً إلى تثبيت أقدامه وضمان انتصاره .

وقبل أن نحاول تفهم الصراع بين المسيحية وبين الحكام والمجتمع ، ذلك الصراع الحاسم فى طبيعته ونموّه وأبعاده ونتائجه ، يجب علينا أن نحلل عن كثب وأن ندرس فى مجال الواقع ظاهرتين أساسيتين عرضناهما فيما سبق عرضاً مبدئيًّا ، وهما أن دين المسيح – ونعنى به الدين الذى يتخذ المسيح إلهاً خاصًّا به – هذا الدين ، عندما انتظم فى الدنيا ، نبعث منه « الكنيسة المسيحية » . ثم إنه إلى جانب هذا ، قد تطور فأصبح « مجموعة عقائدية » و « مذهباً للعقيدة » ، بعد أن كان فى بدايته « أسلوب حياة » .